

الأمثل في تفسير كتاب القرآن المنزل

[531] وفي الحقيقة، أن القرآن سبحانه يريد في هذا الإعلان العام في مكة المكرمة، وفي ذلك اليوم العظيم، أن يوصل كل ذريعة يتذرع بها المشركون والأعداء، ويقطع السنة المفسدين، لئلا يقولوا: إنهم أستغفلوا في الحملة أو الهجوم عليهم، وإن ذلك ليس من الشهامة والرجولة. كما أن التعبير بـ "إلى الناس" مكان أن يقال "إلى المشركين" يدل على وجوب إبلاغ هذا "الأذان" والإعلام لجميع الناس الحاضرين في مكة ذلك اليوم، ليكون غير المشركين شاهداً على هذا الأمر أيضاً. ثم يتوجه الخطاب في الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيباً وترهيباً، لعلمهم يهتدون، إذ تقول الآية: (فإن تبتم فهو خير لكم). أي أن الإستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم وفيها خير لكم ولمجتمعكم ودنياكم وآخرتكم، فلو تديرتهم بجد وصدق لرأيتهم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافي لكل جراحاتكم وليس في الأمر منفعة أو لرسوله. ثم إن الآية تحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: (وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزين). فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال. وأخيراً فإن الآية أنذرت المعاندين المتعصبين قائلة: (وبشرك الذين كفروا بعذاب أليم). وكما أشرنا من قبل فإن إلغاء هذه العهود من جانب واحد - ورفض عهد المشركين - يختص بأولئك الذين دلّت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم وبدت بوادره، لذلك فإن الآية استثنت قسماً منهم لوفائهم بالعهد، فقالت (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن القرآن يحبّ المتقين). * * *